الواقع الافتراضي للفاصلة القرآنية في تصور المتلقي

الدكتور/ عادل راضي جابر الرفاعي
أستاذ البلاغة والنقد- كلية الآداب والعلوم بترهونة- ليبيا

ملخص البحث :

يهدف هذا البحث إلى تناول ظاهرة أسلوبية مهمة عمادها التفاعل الإيجابي بين فواصل القران الكريم وبين المتلقي إذ يحاول القارئ بحسه المرهف وذوقه المثقف وقلبه العقول ومخيلته السامية أن يتنبأ بالفاصلة القرآنية قبل سماعها فيلتقي واقعه الافتراضي الذي يتصوره للسياق القرآ ني مع التركيب البليغ للفاصلة القرآنية وهذا يدلل على أن القران الكريم دانٍ من ذهنية العربي، وقريب من طرق التعبير التي أثرت عن العرب كما يؤكد بلا شك أن القرآن الكريم شافه العرب بلغتهم وخاطبهم من جنس كلامهم وبالتالي لم يكن كلام الله تعالى غريبا أو نشازا عن خطاب العرب في صيغهم التعبيرية.

وتتجلى حالة التفاعل بين المتلقي والقرآن الكريم في جزئية معينة من النص وهي الفاصلة، إذ يستشرف القارئ ألفاظ القرآن الكريم دون تكلف أو تعمّل في الاستماع أو القراءة. هذه الرؤية التي وجدتها ماثلة في بعض استشرافات العرب دعتني إلى عنونة البحث (الواقع الافتراضي للفاصلة القرآنية في تصوّر المتلقي) توظيفا لهذا المصطلح؛ واستعارة له من برمجيات الحاسوب التي يعمد المشتغلون عليها في تصميم واقع افتراضي للأشياء المادية ثم يأخذون بتصميم هذا الواقع المفترض وتحويله إلى واقع حقيقي . كذاك الحال فإن الواقع الافتراضي للمتلقي غالبا ما يطابق الفواصل القرآنية وهذا ما تجسّد في النصوص التي اختيرت مادة للبحث والدراسة. أما صور هذا الواقع فقد تموضعت في ثنائية اللفظ والمعنى حيث أخذ المعنى حيزا أكبر من اللفظ من خلال التمكين والإيغال بينما اختص اللفظ في صور التصدير.

وجدير بالذكر أن المادة التي اعتمد عليها البحث لم تغب عن ذهنية القدامى من المؤلفين إذ ألفيتها مبثوثة في تآليفهم لاسيما المصطلحات البلاغية لكن الطريقة التي سلكتُها في دراسة الآيات وربطها بتوقعات المتلقي والإفادة من الروايات وما نصّ عليه الأقدمون في وجود مثل هذه القراءات الدقيقة للسياق القرآني هو ما دفعني لعرض كل هذا في طريقة استأنست بآراء القدامى ومازجته بأفكار المحدثين دون سلب أو تنقيص من جهودهم العلمية في خدمة الإعجاز القرآني.

المقدّمة:

الفاصلة هي آخر الكلمة للآية كقافية الشعر وقرينة السجع ، وتكون الفواصل متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني ، والفواصل بلاغةٌ بينما قيل :إنّ السجع عيب.[١] وقد أفاض العلماء القدامى في حديثهم عن الفاصلة وأهميتها وجماليتها في السور القرآنية ويأتي الرماني في طليعة المدافعين عن الفاصلة القرآنية مميزا لها عن السجع ومرافعا عن بلاغتها رائيا أن الفواصل تتبع المعاني[٢] بينما في السجع ترى أن اللفظ المسجوعة هي التي تأخذ بأعناق المعاني مما يؤدي إلى شيوع التكلف في النص المسجوع وهذا ما ينأي عنه المساق القرآني فلو أنك أردت أن تنظم مقاطع من الكلام منساقة على حرف الميم مثلا كما في لفظة (الأنام) فإن ذهنك سينصرف إلى أغلب المفردات التي تنتظم على هذه الخاصية السجعية المعتمدة على حرفي الألف والميم فتتسارع إليك ألفاظ الأمام أو المنام أو السهام أو الهمام وحينئذ تتبع الألف والميم بدلا من اتباعك المعنى وهذا غير موجود مع فواصل القرآن الكريم؛ لأن المعنى هو الذي يحدد الفاصلة ويستقدمها بكل أريحية وحينها تنتظم بقية الفواصل في نظام رتيب. كما نهج الباقلاني النهج نفسه مع أسلوبية الفاصلة القرآنية ناصّا على بلاغتها بوصفها موطن التعقيب وآخر الآية [٣] ونالت الفاصلة اهتماما كبيرا لدى الزركشي صاحب البرهان إذ أفرد لها مباحث متعددة مستعرضا ماهيتها وصورها وانسجامها مع المقام وائتلافها مع المعنى[٤] أما السيوطي فقد عقد فصلا مطولا لفواصل الأي القرآنية مفضلا إياها على مصطلح السجع ذاكرا أهم أحكامها مبينا أهم صور ائتلافها مع المعنى واللفظ [٥]. ولم يكن المحدثون بمنأى عن بلاغة الفاصلة فقد أفردوا لها كتبا خاصة ويأتي كتاب الفاصلة القرآنية للدكتور عبد الفتاح لاشين على رأس هذه المؤلفات حيث عرض لآراء القدامى في الفاصلة ونبّه إلى افتراقها عن السجع ورأى بخروج بعض الآيات عن نظمها المألوف بسبب الفاصلة ثم نقل الفاصلة نقلة موضوعية من خلال ربطها بقضايا البعث والنشور وعقاب المشركين وفضح المنافقين حتى ختم كتابه بمشكلات الفواصل[٦]كما خصص الأستاذ محمد علي الحسناوي كتابا للفاصلة معرفا إياها قائلا ببلاغتها مسترشدا برؤى البلاغيين القدامى عارضا لأهم صور الفاصلة مخلصاً القول : إنّ السجع لا يقع

١- ينظر الرمّاني- النكت في إعجاز القرآن ص٩٧ والباقلاّني -إعجاز القرآن ص٢٧٣ والزركشي - البرهان في علوم القرآن ج١/ص٥٤

٢- ينظر الرماني – النكت في إعجاز القرآن ص٩٧

٣- ينظر الباقلاني – إعجاز القرأن ص٢٧٣

٤- ينظرالزركشي – البرهان في علوم القران ج١/ ص ٦٧ وما بعدها

٥-ينظر السيوطي - الإتقان في علوم القران ج٢/ ١٨٩- ٢٠٣

٦- ينظر عبد الفتاح لاشين – الفاصلة القرآنية ص٦ وما بعدها

في القرآن أبدا وإن الفاصلة لها ميزة وخاصية تكتسبها من النظم القرآني [٧] بينما يرى صبحي الصالح أن الفاصلة القرآنية» ليست كقافية الشعر تقاس بالتفعيلات والأوزان ولا تضبط بالحركات والسكنات ولا النظم فيها يعتمد على الحشو أو التطويل أو الحذف أو النقصان ولاتحشد حشدا ولا تلصق إلصاقا كما يحصل في السجع فهي طليقة من كل قيد ونظمها بنجوة من كل صنعة وترى النص فيها كاملا غير منقوص يلين ويشتد ويهدأ أو يهيج ثم ينساب انسياب الماء حين تسقي الغراس أو يعصف كما تعصف الريح العاتية فتبهر الأنفس والأنفاس»[٨]. هذه الدراسات المستفيضة أغنت الجانب الموضوعي للفاصلة لكنها لم تضع قبالة القاريء التفاعل الفيّاض بين الفاصلة والمتلقي ولم أجد في متون هذه المؤلفات ما ينص على التراسل المتبادل بين الفاصلة والقارئ لذلك كان هذا أحد الأسباب التي دفعتني لتقصي حالات توقع السامع للفاصلة القرآنية قبل سماعها ؛ فضلا عن رغبتي في توجيه عناية القاريء المسلم إلى يُسْر القول القرآني وقربه من أساليب الناس في كلامهم.

وقبل الحديث عن عرض السياقات التي يؤسّس لها السامع واقعا افتراضيا سليما لابدّ من الإشارة إلى أن السياق القرآني يمتاز بوجود علاقات متآلفة بين الألفاظ هذه العلاقات تؤدي إلى خلْقِ حالة محمودة من التوافق النظمي على مستوى الدلالة والصوت؛ وبهذا يمكن القول:إن السياق القرآني ماهو إلاّ أداة فعالة تسهم في توجيه جمالية الفاصلة القرآنية وتحقيق بلاغتها فضلا عن تفعيل تأسيس واقع افتراضي تفعيلا يرشّح اكتشاف الفاصلة من المتلقي .

ولوجود خاصية الارتباط بين المعنى الخاص للآية وبين الفاصلة فإنه لايمكن إقحام أي لفظة في غير موضعها - أعني فاصلةً-لأنّ هذا التصرّف سيؤدي إلى رفضها رفضا تلقائيا، واستهجانها بسبب وقوعها في غير مكانها، ويدخلها في حالة السقوط البلاغي[٩]

وترتبط الفاصلة بالمعنى ارتباطا وثيقا في علاقة متآصرة يؤدي بها اللفظ دورا كبيرا هذه الثنائية (اللفظ والمعنى) هي مرتكز تصور الواقع الافتراضي عند المتلقي ؛ لذلك يمكن أن نقسّم هذا الواقع إلى شقين: واقع يستشرف عن طريق اللفظ، وواقع يستشرف عن طريق المعنى؛ ولأهمية المعنى في تكوين الواقع وإسهامه في إنشاء خريطة افتراضية عند القاريء ،فلابدّ من الشروع بدراسته ثم القيام بتتبع مواطن الآيات التي يؤدّي بها اللفظ دورا مهما في تنشئة واقع لفظي آخر.

٧- محمد الحسناوي – الفاصلة في القران ص١٤٠

٨- مباحث في علوم القران – صبحي الصالح ٣٤٠

٩- ينظر الخطّابي - بيان إعجاز القرآن ص٢٩

أنماط الواقع الافتراضي عند المتلقي:

من خلال تتبع مواضع الفواصل القرآنية اتضح أن السامع يتوقعها عن طريقين: أحدهما يؤدي المعنى فيه دورا رياديا يسهم في تفعيل استشرافه عند المتلقي بينما ينهض اللفظ بمهمة الاستشراف ليكون هذا طريقا ثانيا في إعانة السامع.

١- الاستشراف عن طريق المعنى:

يرى بعض النقّاد أن الألفاظ خدمٌ للمعاني وأوعيةٌ لها[١٠]، وهذا يعني أن الشرفية والتقدمة تكون للمعنى، فهو بمنزلة المخدوم الذي يتفانى الخادم في طاعته والامتثال إليه،هذه الرؤية كان لها حضورها في تكهّن الواقع الافتراضي للمعنى عند القاريء إذ إن المستوى التعبيري للمعنى هو الذي يستقطب اللفظة المناسبة المفعمة بالدلالة المتناغمة مع السياق،بعبارةٍ أخرى لو أنّ السياق تطلّب لفظة (أ) لتحلّ في مكانها المناسب واستبدلت بلفظة (ب) هذا الأمر سيجعل السياق مرتبكا ومرفوضا من قبل النص والسامع. ولكي نقف على الجانب التطبيقي في النصوص لابدّ من تتبّع صور التمكين والإيغال اللذين يتم بهما تألق فرضية الواقع عند المتلقي لاسيما عن طريق المعنى..

إن التمكين هو مقام الرسوخ والاستقرار [١١] ويتجلى التمكين في أن يُمهّدَ للفاصلة بتهميد قبل مجيئها تأتي فيه ممّكنة في مكانها ، مستقرةً في قرارها ، مطمئنةً في موضعها غير نافرة ولا قلقة ، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تامّا غير مجزوء ولا مخترم، بحيث لو طُرحت أو أُزيلت إزالةً مقصودة ؛لاختلّ المعنى واضطرب الفهم.[١٢]

في ضوء ما سبق يتضح أن التمكين لم يكن إلاّ مقدّمةً معنوية يتم فيها تأهيل التركيب لاستقبال الفاصلة بحيث تحلّ في مكانها المناسب وتنـزل في مقامها الملائم ولولا هذا التمهيد لما وصلت الفاصلة إلى حالة الثبات والاستقرار.

ويمكن ملاحظة ذلك في قوله تعالى:

(وَلَقَدْ خلَقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ ثمّ جعَلْناهُ نطفةً في قرارٍ مكينٍ ثُمّ خَلَقْنا النطفةَ عَلَقَةً فخَلَقْنا

١٠- الجرجاني، عبد القاهر - دلائل الإعجاز ص٦٣

١١- الجرجاني، السيد الشريف - التعريفات ص٧٤

١٢- ينظر الزركشي - البرهان في عوم القرآن ج١/ص٧٩

العَلَقةً مُضغةً فَخَلَقْنا المُضغَةَ عِظاماً فَكَسونا العِظامَ لَحماً ثُمّ أنْشَأناه خَلْقاً آخرَ فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالقين) (١٣)

إنّ القارىء لهذا النصّ القرآني ليجد روعةً في الأسلوب والقدرة حيث ترتقي الألفاظ سُلّمَ البلاغة ،وتعتلي الأحداث عتبة التكوين الخلْقي،إذ يتابع القرآن الكريم عملية تكوين الإنسان في رحم أمّه بمراحل متتابعة كلّ منها مرتبطة بالأخرى ارتباطا منتظما بدءاً من النشأة الطينية ، وانتهاءً بكسْوِ العظام لحماً.

وبعد إتمام هذه المراحل نتتبع موطن الاستقرار الدلالي الذي تأتي فيه الفاصلة متمكنةً في موضعها فكان أن جاء التركيب(فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين) ليمثّل حالةً متآلفة بين المعنى والفاصلة. ذكر السيوطي في الإتقان أنّ بعض الصحابة بادرَ إلى ختمها بفاصلتها قبل أن يسمع بها ..... فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال: أملى عليّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم-هذه الآية: (ولَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ من سلالةٍ من طينٍ) إلى قوله تعالى:(خلْقاً آخر) قال معاذ بن جبل (فَتَبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين) فضحك رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- فقال له معاذ : ممّ ضحكت يارسول الله؟ قال: بها خُتمتْ.(١٤)

حينما نقرأ السياق القرآني بدقة فسوف تظهر أمامنا صورة مشرقة للتنبؤ الأسلوبي ، فقد استشرف الصحابي معاذ بن جبل فاصلة مناسبة لتنزل في مكانها المناسب وتستقرّ في قرارها فكان قوله تعالى:

(فتبارك الله أحسن الخالقين) وهو تركيب يتألف من أربع كلمات لم يكن بينها تعثّر أو خطأ معنوي ، ولم يقع فيها تعاضل أو حشدٌ في التركيب وهنا نتساءل : كيف عرف هذا الصحابي الفاصلة المناسبة لهذا المقام؟ إن معرفته لتلك الفاصلة التي تمكّنت في موضعها المناسب هو من صميم تصوّر الواقع الافتراضي وعلى الرغم من أنّه يدور في فلك الافتراض إلاّ أنّه أصاب الحقيقة الأسلوبية ولم يُجافِ صدق القرآن الكريم ؛ ولهذا أجابه النبي الأكرم - صلّى الله عليه وسلّم- بابتسامةٍ وافقت الواقع الافتراضي عند السامع للفاصلة ومعناها ؛ وقال له : بها خُتمتْ.

وجدير بالذكر أن الواقع المفترض الذي تنبأ به السامع في هذا المساق لم يكن لفظة واحدة بحيث تكون سهلةَ التأقلم مع السياق ، وإنّما هو تركيب كامل يتكون من جملة قوامها مسند إليه ومسند وفضلات من القول. هذه الإصابة التامة- في إحلال هذا التركيب محلّه المناسب ،ووضعه الوضع الذي يقتضيه

١٣- سورة المؤمنون:١٢-١٤

١٤- ينظر السيوطي - الإتقان في علوم القرآن ج٢/ ١٩٧

النظم- تدلّ بشكل قاطع على فصاحة العرب، واقتدارهم من ناصية القول والفصاحة، فتمكنوا بذلك على توقع الكلام قبل خروجه من مظانه القرآنية، والجينَ عالم الواقع الافتراضي ،راسمينَ بعداً حقيقيا مربّعَ الأبعاد ،متكاملَ الرؤى دون نقص أو زلل،مقتربينَ بذلك من

للغة القرآنية كونها نزلت بلغتهم، وسايرت أساليبهم في النظم والتعبير.

أمّا استشراف الصحابي معاذ بن جبل للفاصلة القرآنية فإنه ينبيء عن يسر القرآن الكريم وسهولته إذا ما أردت منه اليسر، وإن أردت أن تحشر فيه ما ليس منه تراه صعبا عصياً على الثغرات والمعاضلة .وفي هذا الإطار نتساءل ثانيةً لماذا اختير لفظ (أحسن الخالقين) ليكون فاصلة موقوفا عليها دون أن يختار(أحسن المنشئين) عطفا على آخر فعل قريب من الفاصلة وهو قوله تعالى:(فأنشأناه خلقاً آخرَ)؟. يكون الجواب- هاهنا- أن السياق القرآني سيطرت عليه الأفعال الخلقية وعددها أربعة ويوازيها في الدلالة وجود أفعال أخرى تحمل معنى الخلق ويمكن توضيح ذلك بالمخطط الآتي:

أفعال الخَلْق

خلقنا الإنسان---------فعل أول

خلقنا النطفة ---------فعل ثان

خلقنا العلقة ---------فعل ثالث

خلقنا المضغة -------فعل رابع

الأفعال الموازية في الدلالة

جعلناه نطفة

كسونا العظام

أنشأناه خلقا

فالملاحظ أن الفعل الأخير هو (أنشأنا) وفي حال اشتقت منه الفاصلة كقولنا (المنشئين) فسوف يعتري السياق نقص وتصيبه ثلمةٌ تخدش حالة التوقع الافتراضي الذي رسمه في ذهنيته الصحابي الجليل والذي طابق الآية الكريمة ، كما أن التمكين المعنوي يرتئي الإتيان بفاصلة مناسبة تنخرط في سلك النظام الرتيب الذي انتظمت عليه فكرة خلق الإنسان ،وبالتالي فمن الضروري خلق حالة من التلاؤم بين الفكرة (المعنى) وبين الألفاظ التي أسميناها أفعال الخلق.

ومن متمّمات التكهن بالواقع الافتراضي لهذا النص وجود حالة من التعالق المعنوي حيث يتبدّى للقاريء

ذلك الاتساق والتناسق في عرض مراحل الخلق من خلال التدرج في التكوين عبر حروف العطف التي نهضت بهذه المهمة الدلالية ، فقد فصل بين مرحلة وأخرى بحرف مناسب فجاءت (ثمّ) العاطفة «لتؤديَ دور المناسبة والمغايرة» [١٥] وجاءت الفاء التي تتصف بالعطف دون تراخٍ [١٦] وتوالت الأعطاف ست مرات أخذت ثم ثلاثا وحازت الفاء على ثلاث أخرى.

ولو سمع المتلقي هذا التنوّع في جمل الخلق لأكبرَ هذا الأمر واستعظمه ،وكانت نتيجة الإكبار ، وخاتمة الاستعظام أن يأتي بكلام يحمل الثناء والإجلال على هذا الفعل العظيم حينئذٍ يستقدم واقعا افتراضيا يطابق الصورة المألوفة للآية القرآنية كما فعل معاذ بن جبل، فجاء قوله «فتبارك الله أحسن الخالقين» ليواطيء - بفطرته- القول القرآني ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

ومن صور التمكين المفضي إلى واقع افتراضي عند المتلقي من جهة المعنى ماورد في قوله تعالى: ﴿والسّارقُ والسّارقَةُ فاقْطَعوا أيْديَهُما جَزاءً بما كَسَبا نَكالاً من اللهِ واللهُ عزيز حكيم﴾ [١٧]

لقد كانت هذه الآية مدعاةً لحوارية لغوية بين قارئها وفتاة نصرانية، فقد روى الأصمعي أنّه مرّ بفتاة نصرانية من بني تغلب فقرأ أمامها آيةً من القرآن الكريم أخطأ في فاصلتها فردته الفتاة، حيث تلا آية حدّ السرقة مخطئا في فاصلتها قائلاً: ﴿جزاءً بما كسبا واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ فردّته الفتاةُ النصرانية قائلة ً:» لقد أخطأتَ فأعاد قراءة الآية بالشكل الصحيح وهو قوله تعالى: ﴿جزاءً بما كسبا واللهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾ ثمّ سألها كيف عرفتِ أنّي أخطأتُ؟ هل تحفظين القرآن؟ قالت: لا أنا نصرانية ،لكن لاتتناسب المغفرةُ مع قطع اليد ،وإنّما يتناسب معها العزّة ؛ لأنّ اللهَ عزّ فحكمَ،فقطع يد السارق.[١٨]

يتّضح مما سبق أن العرب أهل بيا ن وفصاحة،وهم على قدم راسخة من العلم باللغة وأسرارها،وعلى تبصّر عالٍ بالنظم وعلاقات المعنى مهما تنوّعت دياناتهم وهذا مايستشف من هذه الرواية .فإن تيقظ الفتاة النصرانية وانتباهها إلى التلاوة الخاطئة إنّما هو ضرب من تصوّر الواقع الافتراضي، حيث إنّ العقوبة لاتناسبها المغفرة، وقطع اليد لا تتماشى معه الرحمة والرأفة وإنّما توافقه العزّة وتؤطّره الحكمة. ولو تُرك القاريء وهواه دون تمحيص واعتراض من هذه الفتاة لحصلت معاضلة في التعبير وتركّب الكلام بعضه على بعض دون اكتراث للسياق أو المقام . ألا ترى أنّ البسملة - بوصفها رحمةً ورأفة- رُفعتْ من

١٥ - أبو موسى، محمد محمد - دلالات التراكيب ص٢٩٤

١٦- ينظر الجرجاني - دلائل الإعجاز ص٢٢٤

١٧-سورة المائدة: ٣٨

١٨- ينظر الخالدي، صلاح - إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني ص٣٢١

سورة التوبة في القرآن الكريم؟ لذلك فإن إقحام الفاصلة الخاطئة ﴿غفور رحيم﴾ في هذا الموضع مماثلٌ لمن يقرأ البسملة مفتتحاً بها سورة التوبة ، فإنه بذلك سيضع التركيب في غير موضعه مسببا تعقيدا معنويا في النص القرآني ، وكذا الحال ينطبق مع آية حدّ السرقة فلا يصلح السياق إلا لفاصلةٍ متمكنة وهي قوله تعالى:(واللّه عزيزٌ حكيمٌ).

وفي العوْدِ إلى قول القاريء إلى قوله(غفورٌ رحيمٌ) نرى أن هذا التركيب يعكس حالةً خاطئةً من حالات التوقع قوّمته الفتاة بالإتيان بواقع افتراضي سليم مطابق للآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿واللّه عزيزٌ حكيمٌ﴾.

وممّا ينتظم في هذا الموضوع ما حُكي عن أعرابي أنّه سمع قارئا يقرأ قوله تعالى:(فإنْ زَلَلْتُم من بعد ما جاءتكم البيناتُ) [١٩] ثمّ أتمّها - مخطئاً - بقوله:﴿فاعلموا أنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ﴾ ولم يكنْ هذا الأعرابي يقرأ القرآن.فقال:إنْ كان هذا كلام اللّه فلا يقول كذا، فإنّ الحكيم لايذكر الغفران عند الزلل؛ لأنّه إغراءٌ عليه.[٢٠] لتكون الفاصلة المناسبة هي قوله تعالى:(فاعْلموا أنّ اللّه عزيزٌ حكيم) يتبيّن مما سبق أن الأعرابي لم يكن من حفظة القرآن الكريم ولا من قرّائه إلاّ أنّه خطّأ أحد القرّاء كون المُخطيء أساء إلى الواقع الحقيقي للنص القرآني ،فأقامه الأعرابي بحدسه وذوقه الفطري فضلا عن تصوّره الصحيح لواقع مفترض في تركيب يتهادى مع آلية المعنى، حيث إنّ الزلل لايُقرن بالمغفرة ؛ لأنّه لا توجد مناسبةٌ بينهما وفق التمكين المعنوي كما أن التلاؤم مطلوبٌ في السياق؛ ولهذا خطّأ القاريَ واحتجّ عليه بوجود فجوة دلالية في قراءته حينئذٍ عدل عن الخطأ إلى الصواب.

تأسيسا على ما سلف نخلص إلى القول:إنّ الفاصلة القرآنية تأتي متهاديةً مسترسلةً متمكنة إذا حصل توافق بين جزئيات المعنى أو توفّر تآصرٌ قوي مابين الدلالات ومدلولاتها ، وإذا حدث عكس ذلك فإن الواقع الافتراضي عند المتلقي يغدو بعيدا عن الحقيقة .

وقد تتمكّن الفاصلة ويهتدي إليها القاريء حينما يُمهّد قبلها بكلام يكون أشبه بقنطرة دلالية تساعد على تأصيل علائق المعنى من ذلك ماورد في قوله تعالى: (أَوَ لمْ يَهْدِ لهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا من قبْلهم من القُرونِ يَمْشُونَ في مَسَاكنهم إنّ في ذلكَ لآيات أفلا يَسْمَعونَ أوَ لمْ يَرَوا أنّا نسوقُ الماءَ إلى الأرضِ الجُرُزِ فَنُخرجُ به زَرْعاً تأكلُ منه أنعامُهمْ وَأنفسُهُم أفَلاَ يُبْصرون) [٢١]

---

١٩ - سورة البقرة: ٢٠٩

٢٠ - ينظر السيوطي - الإتقان ج٢/ ص١٩٧

٢١ - سورة السجدة : ٢٦ - ٢٧

لقد ابتدأت الآية الكريمة بموعظة مليئة بالهداية ،وهذه الموعظة سمعية ومادامت سمعيةً فإنّ الفاصلة لابدّ أن تأتي سمعيةً تطابقا مع الواقع الافتراضي المتوقع من السامع وتآلفا مع قانون التمكين المعنوي. فأنتج هذا المعنى السمعي - إن جاز التعبير - فاصلةً سمعية (أفلا يسمعون) ،أمّا الآية الثانية فقد ميّزها إيماء متبادل مابين الفعلين: (يروا)و يبصرون) فالتركيب (أو لم يروا) لم يكن في حقيقته إلا مقدمةً استرسلت من خلالها معاني الإبصار لتثبت عندها فاصلةً مستقرّة متمكنة هي قوله تعالى: (أفلا يبصرون).

ومن المناسب الإشارة إلى وجود تراسل آخر بين مطالع الآيات والفواصل في إطار البنية الإنشائية ، حيث صُدّرت الآيتان باستفهام في قوله(أو لم يهدِ لهم) ليكون الثبات عند فاصلةٍ ارتكزت على الاستفهام أيضاً في قوله (أفلا يسمعون) ،ثمّ يتضح هذا النظم في الآية الثانية (أو لم يروا) ليفضي إلى فاصلةٍ أخرى استقرّت على الاستفهام في قوله تعالى(أفلا يُبصرون) وهذه المزية إيجابية أسهمت في توطيد حالة الواقع الافتراضي لدى السامع ، إذ لايمكن لسامعها إلاّ أن يتوقّع - بأريحيةٍ تامّة - تلك الفواصل المناسبة وهي تترى متعانقةً مع الهداية تارةً لتكون متجاوبة مع السمع ، ومتناسقة تارةً أخرى مع الرؤية لتأتي متجاوبةً من خلال البصر.

ومن صور التمكين المومىء للسامع بواقعٍ افتراضي يقرب من السياق القرآني ماورد في قوله تعالى:(مَا قُلتُ لهم إلاّ ما أمَرتني به أنِ اعبُدوا اللّه ربّي وَربّكم وكُنْتُ عليهم شَهيداًمادمتُ فيهم فَلَمّا توفيتَني كُنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم وأنْت على كُلّ شيءٍ شَهيدٌ إنْ تُعذّبهم فإنّهم عبادُك وإنْ تَغْفِرْ لهم فَإنَكَ أنتَ العزيز الحكيم)[٢٢]

لقد اشتمل النص على تحاور مليء بالتأدّب النبوي الصادر من عيسى - عليه السلام - حيث ابتهل إلى الله - تعالى - أن يغفر لقومه بعد أن فوّض أمر الغفران وعدمه إلى خالقه وإذا أمعنا النظر في الآية من جانب المعنى فسوف نجد أنّه لا يُغفر لمن يستحقّ العذاب إلاّ من ليس فوقه أحد يردّ عليه حكمُهُ، فهو العزيز ؛ لأنّ العزيز من صفات الله هو الغالب من قولهم عزّهُ يعزّ عزّاً إذا غلبهُ، ووجب أن يوصفَ بالحكيم أيضا؛ لأنّ الحكيم من يضع الشيء في محلّه ولا يجوز أن نقول :(الغفور الرحيم) مناسبةً لقوله (وإنْ تغفرْ لهم)؛ لأنّ الله - تعالى - قطع لهم بالعذاب في قوله: (إنّ اللّه لا يُغفرُ أن يُشرَكَ به) [٢٣] وقيل:» لأنّه مقام

٢٢ - سورة المائدة: ١١٧-١١٨

٢٣ - سورة النساء:٤٨

تبرّم فلم يذكرْ الصفةَ المقتضية استمطار العفو لهم، وذكر صفة العدل في ذلك بأنّه العزيز الغالب، وقوله (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يعترض عليه إن عفا عمّن يستحقّ العقوبة «.[٢٤]

« فإنْ قلْت: المغفرة لا تكون للكفّار فكيف قال: (وإن تغفرْ لهم)؟ قيل: ماقال إنّك تغفر لهم ولكنّه بنى الكلام على :إن غفرْت . فقال : إنْ عذبتهم عدلْت؛ لأنهم أحقّاء بالعذاب وإنْ غفرْتَ لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة ؛ لأنّ المغفرة حسنة لكلّ مجرم في المعقول بل متى كان الجرمُ أعظم جرما كان العفو عنه أحسن».[٢٥]

وأودّ القول : إنّ القراءة السطحية مستبعدة في مثل هذه النصوص ، وإنّ التحليل الساذج مرفوض كليا ولو سرْت وراء الشكل وارتأيت أن (الغفور الرحيم) تكون مناسبةً لقوله تعالى: (فإنْ تغفرْ لهم) فإنّك قد ابتعدْت كلّ البعد عن معرفة السياق القرآني لذا ينبغي استشراف واقع افتراضي متطابق مع الدلالة تراعى فيه عزّة المقتدر وحكمة الغفّار ؛ لأنّ الغفور لابدّ أن يكون عزيزاً حكيماً،وإن وضعت التركيب (غفوراً رحيماً) فإنّ ذلك سيخلق هوّةً بين اللفظ ودلالته، والسياق وعلاقاته، والواقع وافتراضه عند القاريء.

ولإثبات تمكن المتلقي من معرفة الواقع المتصوّر للفاصلة القرآنية بصورة أكثر تطبيقا يمكن إجراء موازنة نظمية بين سياقين متقابلين في قوله تعالى :(قُلْ أرأيْتُم إنْ جَعَلَ اللّه عليْكم اللّيْلَ سرمداً إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ اللّه يأتيكمْ بضياءٍ أفلا تَسمعونَ) [٢٦]

وقوله تعالى: (قل أرأيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللّه عليكم النّهارَ سرمداً إلى يوم القيامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللّهِ يأتيكمْ بِلَيْلٍ تَسْكنونَ فيه أفَلا تُبصرون) [٢٧]

إنّ جوهرَ السياقين يتمحور حول مقابلة رائعة بين صورة الليل الذي يخيّم على الكون وتتخلّله حالة السكون والهدوء، وبين صورة النهار المليء بالنور والضياء والحركة. هاتان الصورتان ماذا يحصل لو كان كلّ منهما في حالة سرمدية غير زائلة ؟ هذا التساؤل يُجيب عنه السياق القرآني في الآيتين ،» فلمّا كان - سبحانه وتعالى- هو الجاعل الأشياء على الحقيقة وأضاف إلى نفسه جَعْلَ الليل سرمداً إلى يوم القيامة صار الليلُ كأنّه سرمدٌ بهذا التقدير ، وظرف الليل ظرفٌ معتم من حيث الحُلكة لا ينفد فيه البصر لاسيما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلى غيره، وغيرُهُ ليس بفاعل على الحقيقة ،فصار

---

٢٤ - الزركشي - البرهان ج١/ ص٩١

٢٥ - الزمخشري - الكشاف ج١/ ص٦٩٦

٢٦ - سورة القصص: ٧١

٢٧- سورة القصص: ٧٢

النهارُ كأنّه معدوم ، إذ نُسِبَ وجودُهُ إلى غير موجِد، والليلُ كأنّه لاموجود سواه، إذ جُعِلَ سرمدا منسوبا إليه سبحانه فاقتضت البلاغة أن يقول (أفلا تسمَعون) ؛لمناسبة مابين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار».[٢٨]

أمّا السياق الثاني ففيه" أنّ الله – تعالى – لمّا أضاف جَعْلَ النهار سرمدا إليه صار النهار كأنّه سرمد وهو ظرف مضيء تنوّر فيه الأبصار أضاف الإتيان بالليل إلى غيره، وغيرُهُ ليس بفاعلٍ على الحقيقة ، فصار الليل كأنّه معدوم إذ نُسِبَ وجودُهُ إلى غير موجد ، والنهار كأنّه لا موجود سواه، إذ جعل وجودَهُ سرمدا منسوبا إليه، فاقتضت البلاغة والمقامُ أن يقولَ (أفلا يُبصرون) إذ الظرف مضيءٌ صالحٌ للإبصار ، وهذا من دقيق المناسبة المعنوية"[٢٩].

وفي إطار الموازنة الدلالية يتضح أنّ الآيتين تصوّران ظاهرةً كونية هي تعاقب الليل والنهار اختصّت الأولى بالليل فجاء سياقها مكتنزاً بدلالة الظلمة والسكون الذي يتلاشى فيه الضياء، والثانية تفرّدت بسياقٍ مفعم بدلالة النور الذي ينسلخ من الليل ؛ وبذلك تكون الرؤية عدميةً في الأولى بسبب ديجور الظلام حينئذٍ يُصار إلى الحاسة الملائمة لليل وهي السماع فأتى بالفاصلة المناسبة والمتمكنة والتي تلاقح الواقع الافتراضي عند المتلقي لقوله تعالى:(أفلا تُبصرون) ؛لأنّ البصرّ هو الفيصل في تمييز الأشياء بالنهار ولهذا صار وجودُهُ فعّالا في الآية الثانية بينما فعّلَ المقام الحالةَ الليلية في الآية الأولى فاستقدم فاصلةً مناسبةً تثير تصور الواقع الافتراضي لقوله تعالى:(أفلا تَسمعون) .

ولو أردنا إخضاع السياق القرآني لقاعدة الفحص الاستبدالي[٣٠] التي يتمّ من خلالها استبدال لفظة مكان أخرى ، وإحلال تركيب مكان محلّ آخر لحدثَ تخالفٌ في المعنى ،وانفصام في الدلالة . هَبْ أنّك اطّرحتَ التركيب (أفلا تسمعون) واستبدلته بقوله (أفلا تبصرون) تكون بذلك قد أسقطْتَ السياق بلاغيا ودلاليا، وهدمت واقعا سليما أو افتراضيا ، وكذا الحال ينطبق على الآية الثانية إذ لا يجوز أن تضع الاستفهام عن السمع بوجود النهار. وبذلك يمكن القول: إنّ الواقع الافتراضي المستَشرف عند القارئ لهذين السياقين قد استحال إلى حالة حقيقية بفعل وجود التمهيد التعبيري في كلا الآيتين، وهو تمهيد ينخرط في معنى الليل وما يلائم الليل وهذا متحقق في السياق الأول ، بينما جاء التمهيد الثاني لينخرط

٢٨ – الزركشي – البرهان ج١ / ص٨٢

٢٩– المصدر نفسه ج١ / ص٨٢

٣٠ – الغذامي – التكفير والخطيئة ص٤٠

في معنى النهار وما يلائم النهار وهذا متحقق في المساق الثاني ، ولا يجوز إبدال أحدهما بالآخر أبدا، وهذا أمرٌ ينفرد به النص القرآني .

ومن القضايا السياقية التي تسهم في تفعيل معرفة الواقع الافتراضي للفاصلة عند المتلقي مايسمّى بالمعاني الإضافية أو مايُطلق عليه البلاغيون الإيغال، الذي يتمّ من خلاله ختمُ الكلام بما يُفيد نُكتةً يكتملُ المعنى بدونها ، وبه يتجاوز المتكلّم المعنى الذي هو آخذٌ فيه وبلغ إلى زيادة على الحد[٣١].

من ذلك ما ورد في قوله تعالى: (أفَحُكمَ الجاهلية يبغونَ ومنْ أحسنُ من اللّه حُكماً لقوم يُوقنون) [٣٢]

يتساءل القرآن الكريم - بلغة التقريع - عن أولئك اليهود الباغين العَوْدَ بالحكم إلَى الجاهلية ثمّ يُرشد إلى الحكم الأعدل وهو حكم الله تلك ماهية الآية القرآنية ، أمّا الكيفية التي قيلت بها فيُمكن للمتلّقي أن يلمسَ اكتمال المعنى وتمامَهُ عند قوله تعالى : (وَمَنْ أحسنُ من اللّه حُكماً) ولو توقّف القارىء عندها لحصل التمام والمراد في الدلالة، لكنّ السياق ذُيّل بفاصلة يُستنبأ بها ؛نظرا لوجود معنى يهدي إليها . ولم يكن هذا التذييل عيباً يُحسبُ على التطويل ، وإنّما هو بلاغةٌ تنتظم في أسلوب الإطناب[٣٣].

ونشير إلى أن الموازنة الدلالية بين الحكمين: حكم الجاهلية المذموم المطّرح ، وحكم الله العادل هي الأخرى أفضت إلى تنشيط مكامن تخيّل الواقع الافتراضي عند القارىء ، فإنّ من يستهلّ الكلام بحالة سلبية مرفوضة كحكم الجاهلية لابدّ أن يأتي بالبديل عنها وهو الحالة الإيجابية المتمثّلة بالعدل الرّباني ، هذا التقابل المعنوي ينتج عنه تكهّنٌ صحيح ، وتوقّعٌ متطابق مع الآية الكريمة تماماً في قوله تعالى:(لقَوم يوقنون).

ولتوضيح ظاهرة وجود المعنى الإضافي الموغل في تعميق الفكرة القرآنية، والمُسْهم في استشراف الواقع الافتراضي للتراكيب القرآنية يمكن تبيان ذلك في قوله تعالى:(إنّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ولا تُسمِعُ الصُمَّ الدعاءَ إذا وَلّوا مدبرينَ) [٣٤]

«لقد تمّ المعنى وانتهى عند قوله تعالى(لا تُسمع الّصُمّ الدعاءَ) ثمّ أراد أن يعلم تمام الكلام بالفاصلة (إذا ولّوا مُدبرين) فإن قيل : ما معنى (مدبرين) وما فائدتهُ وقد أغنى عنها قوله (ولّوا) ؟ قلت: لا يُغني

---

٣١ - ينظر الجرجاني ، السيد الشريف - التعريفات ص٥٠، والقزويني - الإيضاح ص١٧٩، ومطلوب، أحمد - معجم المصطلحات البلاغية ج١/ ص٣٦٩

٣٢ - سورة المائدة: ٥٠

٣٣ - ينظر ابن الأثير - المثل السائر ج٢/ ص٣٥٧

٣٤- سورة النمل: ٨٠

عنها (ولّوا) فإنّ التولي قد يكون بجانب دون جانب بدليل قوله تعالى: (أَعَرَضَ وَنَأى بجانبه) [٣٥] وإنّ كان ذكرُ الجانب هنا مجازاً ولا شكّ أنّه- تعالى - لمّاً أخبرعنهم أنّهم صمّ لايسمعون أراد تتميم المعنى بذكر تولّيهم في حال الخطاب ، لينفي عنهم الفهمَ الذي يحصل من الإشارة ، فإنّ الأصمّ يفهم بالإشارة دون السمع ، ثمّ إنّ التولّي قد يكون بجانب مع لحاظه بالجانب الآخر فيحصل له إدراك بعض الإشارة ، فجعل الفاصلة (مدبرين) ليُعلمَ أنّ التولّي كان بجميع الجوانب بحيث صار ما كان مستقبلا مستدبرا ، فاحتجب المخاطَب عن المخاطِب. . . فخفيت عن عينه الإشارة ، كما صُمّ أذناه عن العبارة فحصلت المبالغة من عدم الإسماع بالكلية ، وهذا الكلام هو من إيغال الاحتياط الذي أدمجت فيه المبالغة فى نفي الاستماع».[٣٦]

وهكذا ندرك أبلغية الصورة المجسمة المتحركة التي تمثل المعنى وتعمقه في الشعور ، وتجعله في الوقت نفسه متآلفا مع الفاصلة القرآنية [٣٧] كما أن دعامة التكهن بمعرفة الواقع الافتراضي يمكن إرجاعها إلى أجواء التولّي والإعراض حيث تخلق حالةً من الإرهاص والإيحاء التام لواقع مفترض تثيره مفردة(ولّوا) وتجيبه مفردة(مُدبرين) إجابةً دلالية صوتية تُصهره في دلالة السياقات القرآنية .

٢- الاستشراف عن طريق اللفظ:

وتعتمد هذه الظاهرة على اللفظ اعتمادا كبيراً حيث تتقدّم اللفظة في أوّل الآية لتماثلَ في الهيئة والصورة اللفظةَ الأخيرة من الآية أو فاصلتها وهو مايسمّيه البيانيّون (التصدير) [٣٨] من ذلك ما ورد في قوله تعال :لاَتَفْتَروا على اللّهِ كَذِباً فَيُسحِتَكم بعَذابٍ وَقَد خَابَ من افتَرى) [٣٩]

إذا كان الواقع المعنوي قد اعتمد بشكل كبيرٍ على التمكين ، فإنّ التكهن بالواقع اللفظي يرتكز ارتكازا كبيرا على اللفظ ، وإذا لمَسَ القاريء في استشراف الواقع الأوّل تمهيداً دلالياً وتوطئةً معنوية، فإنّ استشراف الواقع اللفظي لانلمس من خلاله إلاّ إيماءً وتراسلاً لفظياً متأتياً من التعالق الشكلي والدلالي بين اللفظة الأولى في الآية وفاصلتها .وفي هذا المساق القرآني ندرك ترابطا شديداً بين قوله(لاتفتروا) وبين الفاصلة المستقرّة (من افترى) ، إذ أراد موسى - عليه السلام - نَهْيَ السحرةِ عن اختلاق الكذب

٣٥- سورة الإسراء:٨٣

٣٦ - الزركشي - البرهان ج١/ ص٩٧

٣٧- ينظر سيد قطب - في ظلال القرآن ج٢٠/ ص٢٦٦٦

٣٨- ينظر المصري، ابن أبي الإصبع ــــ بديع القرآن ص٣٦ والسيوطي - معترك الأقران ج١/ ص٤٨

٣٩- سورة طه : ٦١

على الله ولزوم الفرّية ، وكان جمعُهم غفيراً يُقدّر باثنين وسبعين ساحراً مع كلّ ساحرٍ منهم حبالٌ ، وهم في هذه الحال بحاجة إلى نُصح موسى - عليه السلام - ونهيه؛ لأنّ نتيجةَ اختلاق الكذب هو الهلاك والاستئصال بعذاب هائل.(٤٠)

ارتكازا على ما طُرِحَ يمكن القول: إنّ المفردة الأولى من النصّ القرآني هي حجر الأساس الذي يبنى عليه هرم الواقع الافتراضي عند المتلقي لمعرفة الفاصلة التي ستأتي متماثلةً في الهيئة مع تلك اللفظة؛ ألا ترى أنّ طلبَ الكفّ عن افتراء الكذب يرسل قبسا لفظيا يسهم في تسريع اكتشاف الفاصلة المستقدمة ،وهي من صميم الافتراء لكنّها مليئة بالخيبة والخسران؟

كما أن الواقع الافتراضي عند المتلقي لهذا النص استند على دعامات دلالية للأفعال المتوازية في معنى الخسران وهي:(تفتروا ، خاب) وكلّها تؤدي إلى الفاصلة الحقيقية (من افترى) .

ومن النصوص التي اعتمدت على اللفظ لتهيئة الواقع الافتراضي عند السامع ما ورد في قوله تعالى: (اسْتَغفروا رَبّكم إنّهُ كانَ غَفّارا) (٤١)

إنّ التكرار البائن في صدر الآية وخاتمتها أسبغ نوعا من تقوية النغم؛ لأنه اشتمل على عنصر الترنّم (٤٢) الذي يسهم في إثارة القاريء ويشدّه إلى النص حيث يجعله يدقّق في ألفاظ الآية وصور مفرداتها حتى يستقر عند فاصلتها باحثاً عن اللفظ الذي هيّأ لها المثول بهذه الحالة من التآلف الشكلي بين الفاصلة والمطلع القرآني،ألا ترى أنّ الفعل(استغفروا) يحمل في طيّاته تحفيزا مناسبا لمجيء الفاصلة المتوقعة في قوله (إنّه كان غفّاراً) ؟

كما أنّ للمقتربات اللغوية أثراً في استشراف الواقع الافتراضي الداني للواقع الحقيقي ، فالمعلوم أنّ الخبر - هاهنا - جاء مؤكّداً بأن التي ينبغي أن يتبعها جزءٌ مُتمّمٌ للمعنى وهو قوله تعالى(كانَ غَفّاراً) وللفعل (كان) إسهام في التفعيل أيضاً، إذ يوحي بمنصوبٍ يحاكي فعل الطلب (استغفروا) ويضاهيه شكلا وصورةً؛ ممّا يعزّز حالة التآزر بين مقدّمة الآية وفاصلتها.

كما يؤدي التشابه اللفظي دورا واضحا في قوله تعالى:(وتَخشَى الناسَ واللّهُ أحقّ أنْ تخشَاه) (٤٣)

لو قرأت الآية وتوقفتَ عند المقطع الثاني منها (اللّه أحقّ) لأجابك المفترِض اللبيب بقوله (أن تخشاه)

٤٠- ينظر الصابوني - صفوة التفاسير ج٢ / ٢٣٨

٤١ - سورة نوح : ١٠

٤٢- ينظر المجذوب - المرشد إلى فهم أشعار العرب ص٧٢

٤٣- سورة الأحزاب: ٣٧

طبقا لفهمه الافتراضي وسليقته اللغوية ويعود ذلك إلى وجود سياق محكم يرفض مجيء ألفاظ مرادفة من أمثال (تتقيه، تخافه ، تعبده) نظراً لتوفر عتبة لفظية تتجلّى في قوله تعالى(وتخشى الناس) ، هذا الاستهلال القرآني مفعمٌ بالتعجب والغرابة من خشية الناس والركون إليها ، وإنّما الخشية مقصورةٌ على الله تعالى وبذا تكون تلك التمهيدة بمثابة شفرة دلالية تفتح مغالق السياق.

ومثيل هذا الضرب ما ورد في قوله تعالى: (انظُرْ كيفَ فضّلنا بعضهم على بعضٍ وللآخرةُ أكبَرُ درجاتٍ وأكبَرُ تَفْضيلا) [٤٤] لقد حصلت حالة التناسب الظاهري بين أول الآية وآخرها فتبعها تناسب دلالي ، والمدقّق لهذه العلاقة يجدها علاقة اشتقاق لفظة من أخرى ؛لأنّ (تفضيلا) هي من جنس الفعل (فضّل) وبالتالي تكون أداةً لترسيم حدود الواقع الافتراضي عند السامع حيث اعتمد على التكرار المفضي إلى التأكيد وتقوية المعنى [٤٥]. فضلا عن تنبيه القاريء إلى أهمية المفضول من الناس بين مريدي العاجلة ومريدي الآخرة.

وممّا ينخرط في هذا السلك ما ورد في قوله تعالى:﴿ وما كانَ النّاسُ إلاّ أمّةً واحدةً فاختَلَفوا وَلَولا كَلِمَةٌ سبقتْ من ربّكَ لَقُضِيَ بينهم فيما فيهِ يَخْتَلفون [٤٦].﴾ يخبرنا هذا النص باختلاف الناس بعد أن كانوا أمّةً واحدة هذا الاختلاف شملته رحمة الله بإرساء كلمةٍ منه حالت دون هلاكهم. هذا المعنى ترسّخ في المساق القرآني بصنيع تكاتف الألفاظ ومعانيها فالفعل (اختلفوا) يرسل شحناتٍ دلالية للفعل (يختلفون) على الرغم من تغاير الفعلين زمانيا ودلاليا ؛ الأمر الذي أدّى دورا إيجابيا في تلقيح ذاكرة المتلقي للتنبؤ بالواقع المفترض . وطبقا لقاعدة الثابت والمتحوّل فإننا بإزاء تغيّر دلالي ينهض بمهمته تناقلٌ بين الألفاظ المتماثلة في الصورة ، فتارةً يكون اللفظ أوّلَ الآية وتارةً وسطها وأخرى في آخرها موقوفا عليه بوصفه فاصلةً قرآنية ثابتة؛ وتلك حالة الفواصل فإنها تثبت وتستقرّ حينما تكون تابعةً للمعاني مسهمةً في تأكيد الدلالة القرآنية وترسيخها.

ومن السياقات القرآنية التي اعتمدت على الهيئة اللفظية في المساق القرآني ما ورد في قوله تعالى: (وَهُم يَحملونَ أوزارَهُم على ظُهورِهم أَلا سَاءَ ما يَزرونَ) [٤٧]

٤٤ - سورة الإسراء: ٢١

٤٥ - ينظر الكرماني - أسرار التكرار في القرآن ص٣٨

٤٦ - سورة يونس: ١٩

٤٧-سورة الأنعام: ٣١

إنّ الأوزار في اللغة هي الآثام [٤٨] وقد شُبّهت - لثقلها وشدّتها - بالأحمال الشّاقة ؛ وبسبب قبح الذنب وسوء الإثم ذُمّ من الله .ومادام هذا التقبيح قد استند على الفعل (ساء) فلا بدّ أن تصطحب إليه واقعا افتراضيا يتناغم صوتيا ودلاليا معه فكان أن جيء بالفعل (يزرون) وإذا تساءل القارىء عن قوله(ظهورهم) ولم يقل: (رؤوسهم) ؟ يتجلّى لنا أنّ الظهر أقوى للحمل من الرأس فأشار به إلى ثقل الأوزار[٤٩].

النتائج والتوصيات

في خاتمة البحث لابدّ لنا من إيجاز أهمّ النتائج التي توصلنا إليها وهي:

١- تبيّن أنّ القرآن الكريم لم يخرجْ عن الفصيح من كلام العرب ، وأنّه حاكى أساليبهم، وشافههم بالطريقة اللغوية التي يتخاطبون بها لكنّه - أي القرآن - ارتقى على نظم العرب ، وسما على أساليبهم ، وعلا جميع صورهم.

٢- اتضح لنا أنّ الواقع الافتراضي عند المتلقي للفاصلة القرآنية تجلّى في التنبّؤات التعبيرية التي صدرت من العرب، إذ تقصّى البحث بعضا من هذه الحالات الإيجابية التي تدلّل على قرب النص القرآني من ذهنية العربي ، و تثبت أن اللغة القرآنية لغةٌ عالية تخاطب العقل وتقنعه، وتشافه العاطفة وتثيرها؛ ولهذا أوجدت تفاعلا سليما من العرب فتنبّؤوا ببعض ألفاظها قبل أن تُقرأ عليهم ، وعرفوا بعض فواصل القرآن الكريم وإن لم يكونوا مسلمين ، وهذا ملمحٌ إيجابي من ملامح الرقي اللغوي الأسلوبي.

٣-ارتكزت فكرة الواقع الافتراضي عند المتلقي على الفاصلة القرآنية ؛كونها مهمةً في النص القرآني إذ تعدّ مصدر الاستقرار التعبيري والصوتي من حيث الانتهاء عندها في التلاوة والدلالة وبها تتحقق الأريحية النغمية. وقد توفرت عينات متعدّدة لنصوص تصلح لأنْ يتخللها توقع افتراضي عند القارىء يدنو من الصورة المعهودة للآيات القرآنية ؛ولذا ارتكز هذا الواقع على خطين هما : اللفظ المعنى،وقد اعتمد كلّ منهما على مقتربات لغوية ،ودعائم سياقية تمثّلت في التمكين والتصدير والإيغال.

٤-تبدّى لنا أنّ النص القرآني يعتمد - بشكلٍ أساسي - على العامل السياقي، حيث تستمد اللفظة القرآنية قوتها وحيويتها ودلالتها من السياق الذي تنخرط فيه ؛ وبالتالي فإنّ هذه الخاصية العلائقية

٤٨- الزمخشري - أساس البلاغة مادة(وزر) وابن منظور - لسان العرب مادة(وزر)

٤٩- الزركشي - البرهان ج١/ ص٩٧

أسهمت في تحفيز المتلّقي لكي يتعرّف على الفاصلة قبل مجيئها ، ويؤسس لها واقعا افتراضيا في خريطته المتخيّله ؛ليدنو بها من النصوص القرآنية.

٥- من خلال البحث نخلص إلى الإيصاء بقراءة المفردة القرآنية قراءة سياقية تعتمد على عدم سلخ الكلمة من التركيب الذي ترد فيه ، ولم تكن هذه دعوى لتخطي الدلالة الموضعية للمفردة القرآنية بقدر ماهي رؤية تنطلق من جعّل المعنى السياقي مقياسا أساسيا لقراءة المساقات القرآنية انطلاقا من فهم اللغة على أنها نظام من العلاقات فكيف إذا ما علمنا باشتمال المفردة القرآنية على إشعاعات دلالية تكتسبها من التركيب الذي تنخرط فيه .هذا بدوره يؤدي إلى فهم المعنى القرآني فهما يفضي إلى استشراف فواصله القرآنية لأن المعاني في المساقات القرآنية تتآزر في إبراز أبلغية المفردات حينما تتعالق فيما بينها وبالتالي يسهم هذا الأمر في تفعيل إدراك المتلقي للفاصلة القرآنية ويفضي إلى تكوين واقع افتراضي لها يداني صورها الكائنة في السور القرآنية

٦- يلفت البحث عناية القاريء الكريم إلى أن الأفياء القرآنية وارفة الظلال ما إنْ تحكم بجودة في ء وسموه حتى يأتلق لك في ءٌ آخر يأخذ بمجامع الإعجاب لديك ويصطحب آلة البحث عندك إلى التعمّق في السياق لإدراك أسرار التعبير القرآني ، والخوض في دراسة ظواهره الأسلوبية التي تنتمي إلى البلاغة وجماليتها ، وتأترج بالفصاحة وعلوها، وإذا كان في ء الفاصلة القرآنية قد غدا مادةً يسيرة مألوفة للمتلقي تفاعل معها واستشرف صورها المتنوعة في القرآن الكريم فإن الكثير من الظواهر الأسلوبية بحاجة إلى التمحيص والدراسة والربط بذهنية القارئ والتأثير فيه تأثيرا إيجابيا يسهم في إبراز الخواص الطيبة والبليغة التي تخدم قضية الإعجاز القرآني.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم برواية حفص بن سليمان الكوفي عن عاصم بن أبي النجود الكوفي.

٢- أبو موسى، محمد محمد - دلالات التراكيب - (دراسة بلاغية) ط٢، ١٩٨٧، مكتبة وهبة - مصر.

٣- ابن الأثير(ضياء الدين نصر الله بن محمد ت ٦٣٧هـ) -المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط١، ١٩٥٩، مطبعة نهضة مصر - القاهرة.

٤-ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي ت٧١١هـ) - لسان العرب، ط٣، ١٩٩٤، دار صادر - بيروت.

٥ - الباقلاني(أبو بكر محمد بن الطيب ت٤٠٤هـ) - إعجاز القرآن، تحقيق الشيخ عماد الدين حيدر ، ط١، ١٩٩١، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

٦ - الجرجاني(السيد الشريف علي بن محمد(ت ٨١٦هـ) - التعريفات، تحقيق عبد المنعم الحفني (د.ت) ،دار الرشاد.

٧ - الجرجاني(عبد القاهر بن عد الرحمن ت٤٧١هـ) - دلائل الإعجاز ،قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، ط٣، ١٩٩٢، مطبعة المدني - القاهرة.

٨- الخالدي، صلاح عبد الفتاح - إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ط١، ٢٠٠٠ دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن.

٩- الخطّابي(أبو سليمان محمد بن محمد ٣٨٨هـ) - بيان إعجاز القرآن، « ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، (د.ت) دار المعارف بمصر - القاهرة.

١٠ - الزركشي(بدر الدين محمد بن عبد الله ٧٩٤هـ) - البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (د.ت) مكتبة التراث- القاهرة.

١١- الزمخشري(جار الله محمود بن عمر ت٥٢٨هـ)- أساس البلاغة، ط١، ١٩٩٢، دار صادر - بيروت.

١٢- الزمخشري، جار الله - الكشّاف عن غوامض حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وترتيب مصطفى حسين أحمد، (د.ت) ، دار الكتاب العربي - بيروت.

١٣ - سيد قطب - في ظلال القرآن ، ط١٠، ١٩٨٢، دار الشروق - القاهرة.

١٤ - السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ) - الإتقان في علوم القرآن، ضبط

وتصحيح محمد سالم هاشم ، ط١، ٢٠٠٠، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٥- السيوطي- معترك الأقران في إعجاز القران ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ١٩٦٩، دار الفكر العربي- مصر.
١٥ - الصابوني ، محمد علي - صفوة التفاسير،ط١، دار الصابوني للطباعة والنشر - القاهرة.
١٦- الغذامي، عبد الله - التكفير والخطيئة من البنيوية إلى التشريحية ، ط٤، ١٩٩٨، الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة.
١٧- القز ويني(الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن ت٧٣٩هـ) - الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عبد المنعم خفاجة، ط٤، ١٩٧٥، دار الكتاب اللبناني.
١٨- لاشين، عبد الفتاح – الفاصلة القرآنية، ١٩٨٢، دار المريخ للنشر، الرياض.
١٩- الكرماني (أبو القاسم محمود بن حمزة ت٥٠٥هـ) أسرار التكرار في القرآن، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، (د.ت) دار بو سلامة للطباعة والنشر- تونس.
٢٠- المجذوب، عبد الله الطيب - المرشد إلى فهم أشعار العرب، (د.ت).
٢١- المصري(ابن أبي الإصبع عبد العظيم بن عبد الواحد ت٦٥٤هـ) - بديع القرآن، تحقيق محمد حفني شرف، ط١، ١٩٥٧، دار المعارف بمصر- القاهرة.
٢٢- المصري، ابن أبي الإصبع - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، تحقيق محمد حفني شرف ،١٩٩٥، مطابع الإعلانات الشرقية - القاهرة.
٢٣- مطلوب، أحمد - معجم المصطلحات البلاغية، ط١، ١٩٨٣، مطبعة المجمع العلمي العراقي - بغداد.